

من عجائب التصحيف

للأستاذ محمود عزت عرفة

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى ، رجاء ألا ينفذ وعيده من هجر الكتابة وكسر القلم ، احتياجاً على ما تمنى به مقالته البارة من مشوهات التصحيف والتحريف] .

لو يعلم الأستاذ الجليل على الطنطاوى أنى لا أكاد أتمع على تصحيف واحد في مقالاته ، إلا أن ينبه هو عليه بتصحيحه في ذيل مقالة تالية لأخذ منه العجب مأخذه . ذلك أنى أقرأ عباراته على صحتها ، وأتناولها في الأغلب على وجهها ؛ فيسبق لسانى إلى كلمة (المضرى) مثلاً ، وهى أمام عيني محرفة إلى (المصرى) ، ولا أكاد أنبه إلى أن (يطير به) تصحفت إلى (يطربه) الخ . وما أشك في أن كثيراً من قراء « الرسالة » يفعلون ذلك دون تكلف أو عناء .

ولست أعرف الأستاذ بمجهول لديه حين أقول إن التصحيف والتحريف والتبديل والتطبيع ، هى ضرائر فى لغتنا لا مخلص لنا منها ، مرجعها إلى تشابه بين بعض الحروف لا يجدى معه شكل أو إجماع . وأين تقع نحن من أسلافنا — أرباب الفصاحة وفرسان البيان — وهم قد أتوا من فنون هذا التصحيف بما أضحك منهم الشكالى وجفف دموع الباكيات ؟ بل أين من سلم فى القدماء والمحدثين من هذه الآفة ، أو تهدى إلى وجه الخلاص منها ، إلا أن يكون — على حد قول المسكرى صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » — « ممن أفن فى العلوم ، ولقى العلماء والرواة والمتقدمين فى صناعتهم ، المتقنين لما حفظوه ، وأخذ من أفواه الرجال ، ولم يموّل على الكتب الصحفية ، ولم يؤثر شدة الراحة والتقليد على تعب البحث والتنقيب ... » ؟

هذا كتاب الله الذى أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... لم يسلم ممن يمرض له بالتصحيف والتحريف ، وهو ما هو سراناً على السنة المسلمين ، والتياطاً بقلوبهم ، ونمكتنا من صدورهم ، لولا أن صدق الله فيه وعده : « إنا نحن نزلنا الذكر

وإننا له لحافظون » ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » تنزيل من حكيم حميد .

فقدذكروا أن حاد بن الزرقان ، المقرئ الراوية ، كان يصحف ألفاظاً فى القرآن لو قرئ بها لكان صواباً ، لأنه حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأ على شيخ ، فكان مما يفلط فيه : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أياه » يريد « إياه » . وكان يقرأ : « بل الذين كفروا فى غرة وشقاق » والصواب « غرة » . ويقرأ : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يكفيه » بدل « يكفيه » .

وقرأ عثمان بن أبى شبة على أصحابه فى التفسير : « ألم تركب فحل ربك بأحباب الفيل » ، يعنى قالها كأول البقرة (ألف ، لام ، ميم) . وحدث عنه إسماعيل بن محمد البصرى قال : سمعت عثمان ابن أبى شبة يقرأ : « وجعل السقاية فى رجل أخيه » فقلت له : ما هذا ؟ قال : تحت الجيم واحد ! وكان أيضاً يقرأ : « وما علمتم من (الخوارج) مكّبين ! »

وينسب أصحاب حزة الزيات إليه أنه كان يتعلم القرآن من المصحف ، وأنه قرأ يوماً وأبوه يسمع : « ألم ، ذلك الكتاب لا زيت فيه » ، فزجره أبوه وقال : دع المصحف وتلقّن من أفواه الرجال !

وكان محمد بن الحسن المطار المقرئ — المروفي بن مقسم — يتلو قوله تعالى : « فلما استأثروا منه خلصوا منجباء ... » بالياء والمزة فى آخره . ويقرأ بحروف أخرى تخالف الإجماع ويتمحّل لها وجوهاً بعيدة من اللفظة والمعنى . قال أحمد القرظى : رأيت فى اللثام كأتى فى المسجد الجامع أصلى مع الناس ، وكان ابن مقسم قد ولى ظهره للقبلة وهو يعلى مستدبراًها ، فأولت ذلك مخالفتة الأئمة فيما اختاره لنفسه من القراءات

هذا طرف مما أثر عن تصحيقات القراء ... أما « المحدثون » فلمهم فى ذلك ما يستخرج العجب . قال أبو على الرازى : كان عندنا شيخ يروى الحديث — من المغنلن — فرووى يوماً أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجّام أجراً ، يعنى أجره وحدث ابن شهاب قال : أخبرنى عبد الله بن ثعلبة أن النبى

صلى الله عليه وسلم مسح وجهه « من القبح » — قال أحمد بن حنبل : أخطأ وصحّف ، إنما هو « زمن الفتح » .

وفي الحديث : إن الكافر ليجرّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس . حرقه بعضهم فقال : ليجرّ لسانه في سبعين ... والأول هو الصحيح

وأغرب من هذا ما حكاه القاضي أحمد بن كامل قال : حضرت بعض مشايخ الحديث من الغفلين فقال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل ، عن الله ، عن رجل قال : فنظرت فقلت : من هذا الذي يصلح أن يكون شيخ الله ؟ فإذا هو قد صحّفه ، وحقّه — عز وجل —

وصحّف رجل قول النبي صلى الله عليه وسلم : عم الرجل صينوُ أبيه . فقال : عم الرجل ضيق أبيه
وصحفوا : لا يرث جميل إلا بيئته (والجميل الدعوى في نسبه)
فقالوا : لا يرث جميل إلا بيئته !

ومن الأحاديث المصحفة قوله عليه الصلوات : أحببون أن تكونوا كالحمر الضالة ؟ قالوا : هي (الصالة) بالصاد المهملة — يقال للحمار الوحشي الحمار الصوت ، صال وصلصال ، كأنه يريد الصحيحة الأجساد الشديدة الأصوات لقوتها ونشاطها

وللأدباء والنحاة وعلماء اللغة تصحيفات كثيرة تتبّع بعضهم بعضاً فيها فأكثرها التتبع حتى اقتضحوا جميعاً . ولا تكاد تخلو مجموعة لغوية من فصل يعقد لهذا النوع التمنّيت من النقد . ونحن نبدأ في هذا المقام بذكر السقطة التي أخذوها على الجاحظ (رحمه الله) ، لأنه كان ممن لا ينفك يتتبع سقطات الرجال ، بل ليزيد عليهم من القول بما يدعهم مضنة الأفواه وأنحوكة المحافل ... قال المسكوي في كتابه : سمعت من يحكي عن ابن دريد - ولم أسمع هذه الحكاية منه — أنه قال : وجدت للجاحظ في كتاب البيان والتبيين تصحيحاً شنيعاً في الوضع الذي يقول فيه : حدثني محمد بن سلام قال : سمعت يونس يقول : ما جاءنا من أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر^(١) : وإنما هو عن البُتّي (بضم الباء وكسر التاء

مشددة) أي عن عثمان البُتّي وكان فصيحاً ؛ فأما النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا شك عند المسلم والذي أنه كان أفصح الناس . فهذا تصحيف أبي عثمان الجاحظ !

وجلس الاحياني (أبو الحسن علي بن المبارك) على نوادره يوماً فقال : مُثَقِّل استمان بذقنه . فقام إليه يعقوب بن السكيت وهو حدث فقال : يا أبا الحسن ، إنما العرب تقول : مثقل استمان بذقنيه ، يريدون الجمل إذا نهض بالحمل استمان بجنبه . فقطع الاحياني الإملاء ، فلما كان في المجلس الثاني أملى فقال : تقول العرب : هو جاري مكاشري (بشين معجمة) ، فقام يعقوب فقال : أعزك الله ، ما معنى مكاشري ؟ إنما هو مكاسري ، كسر يتي إلى كسر يته . فقطع الاحياني الإملاء بعد ذلك ...

وحدث أبو الميناء قال : كتبت إلى صديق لي : جُمِلت فذاك من السوء كله ! فلقيني بعد ذلك فقال لي : إنما أستفيد أبداً منك — لا عدمتُ ذاك — وقد كتبتَ إلي : جُمِلت فذاك من الشوكلة . فما الشوكلة ؟ قال : فجمبت وصحكت ثم قلت : نلتني بعد هذا وتقم الفائدة !

وحدث عون بن محمد عن أبيه قال : حضرت الأجر وهو على بابا في النحو ويقول : تقول العرب أوصيتك أباك ، يريدون بأبيك ، وأوصيتك جارك ، يريدون بجارك ، وأنشد :

عجبتُ من (دهماء) إذ تشكونا ومن أبي (دهماء) إذ يوصيتنا
جيراننا ... كأننا جافونا !

فقال له رجل : أنت تقيس الباب على باطل ، إنما هو : خيراً بها كأننا جافونا . قال : فنضب وقام !

وقرأ رجل يوماً على عبد الله بن الفجيع : ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبستاناً من النور (خالياً) بالخاء المعجمة — فحرك الفجيع رأسه وقال : يا سيد أمه ، فعل أي شيء كنتم تشربون ؟؟ على الخلف^(١) ؟ !

ولأجل هذه الشناعة في التصحيف كانوا يتحاشونه ، ويتداعون إلى ذمه في أشعارهم . قال ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق :

(١) هكنا في كتاب التصحيف للمسكوي وأملها (الخلف) وهو

أردأ الثمر .

(١) كنية محمد بن الحسن بن دريد